المركز العربي للمعلومات

سيتا مانوكيان تروي محطات من صخب العبور وهدأة النسيان:

لا جذور لي وبلادي الفراغ الابيض

كتابة محمد أبي سمرا

١

على مسرح أحد النوادي الارمنية في بيروت مطالع الاربعينات، حصل اللقاء الاول بين الشاب والفتاة الارمنيين اللذين صارا والديّ، بعد تعارفهما وزواجهما. كان الشاب يؤدي دور والد الفتاة في المسرحية، مع أنه لم يكن يكبرها الا بقليل من السنوات. وفي بحمدون التي اعتادا على الاصطياف فيها بعد زواجهما، كانت أمي حبلى بي صيف ١٩٤٥. وفي الليلة التي سبقت ولادتي في بيروت في ذلك الصيف، كانت أمي ترقص مع اصدقاء وأهل مدعوين الى السهر في بيتها الصيفي.

جدي لأبي كان يعمل في حدادة النحاس في تركيا أواخر عهد الحكم العثماني. وفي رواية أبي العائلية سمعت أن جدي نجا من المجازر التي لحقت بالأرمن، لأن الاتراك شاؤوا ترك اثنين او ثلاثة من اصحاب المهن والحرف الارمن على قيد الحياة، فكان نصيب جدي النجاة، لأنه مجيد في حرفته. لكن نجاته من المجزرة لم تبقه في تركيا، بل حملته على الهرب الى بيروت مع زوجته وأولاده في مطالع العشرينات من القرن الماضي، حين كان ابنه، الذي سيصير والدي، في الرابعة من عمره. لم يستقر المقام بجدي طويلاً في بيروت، حيث سرقت مدخراته التي جلبها معه من تركيا، فهاجر الى القاهرة وافتتح فيها مطعماً

صغيراً لبيع الفلافل، قبل أن يواصل الرحيل وينتقل الى حلب، حيث مكث مدة غير طويلة، عاد بعدها ليستقر في بيروت.

أمي من عائلة ارمنية حلبية، كانت اقامتها وحياتها مستقرتين في حلب، حيث يبدو أنها تشرّبت العادات والتقاليد العربية. هذا ما تشير اليه اسماء بعض أفراد عائلتها: عايدة ونظيرة وغيرهما من الاسماء المشابهة. لكن هذا لن يمنع هجرة العائلة من حلب الى بيروت في أواخر الثلاثينات، فألتقت أمي الشابة بوالدي الشاب على خشبة المسرح.

في صباه وشبابه الاول كان والدي ماهراً في الحرف الفنية اليدوية. فما أن استقر أهله في بيروت أواسط الثلاثينات، حتى ابتكر، يدوياً، صناعة القداحات، ثم أخذ يبيعها من الجيش الفرنسي المرابط في لبنان، وكان بعد في منتصف العقد الثاني من عمره. وبعد عمله في هذه الحرفة، انتقل الى فن صناعة الفضيات، ثم أنشأ فبركة صغيرة لتصنيع الألمنيوم في طرف برج حمود، قريباً من الكرنتينا، فتحسنت أحواله المادية تحسناً كبيراً، مما جعلنا نعيش، نحن أسرته، حياة ميسورة وبورجوازية متوسطة في مقاييس الخمسينات والستينات في لبنان. لكن نجاح والدي الصناعي لم يكن يقابله نجاح تجاري في تسويق مصنوعاته وفي ادارة اعماله. وقد يكون فشله التجاري والاداري ناجماً عن انصرافه الى حياة شخصية مدارها الدونجوانية والتبذل اللذان ألهياه عن ادارة اعماله التجارية. لكنه حين كان يقع احياناً في عجز مالي ويغرق في الديون، لم نكن نعلم بذلك، نحن أسرته، لأنه لم يكن يدعنا نشعر بضيقه المادي، ويظل نمط حياتنا على حاله لا يتغير. ومن مآثره، مثلاً، أنه حين أحرقت الحرب مصنعه وبضاعته المستوردة في مرفأ بيروت، أتى بزجاجة من الويسكي، وجلس على شرفة بيتنا في محلة البطريركية، وأخذ يشرب محدقاً في النيران المشتعلة ليلاً في عنابر المرفأ البعيد.

٢

مراحل تعليمي أمضيتها كلها تقريباً في مدرسة الليسيه الفرنسية للبنات (ليسيه عبد القادر) القريبة من بيتنا في البطريركية، الذي انتقل اليه أهلي بعد اقامة قصيرة في طلعة سينما الكابيتول، حيث كان أهل الرئيس اميل لحود من جيراننا هناك، على ما أذكر. في سهولة، اختلطت بأقراني اللبنانيين على مقاعد الدراسة، منذ طفولتي. ومع أني كنت تلميذة ناجحة تنهي دروسها وفروضها كتابة سريعاً وفي وقت قصير، لم أكن أحب المدرسة، بل أكرهها. وأمور الدين والتدين لم تكن لي صلة بهما قط، اذ كانت طقوسهما وشعائرهما شبه معدومة في بيتنا. لذا نشأت من دون أدنى علاقة بالسيد المسيح وأمه السيدة مريم العذراء. اما الطائفية فكانت غائبة ايضاً عن حياتنا الاسرية. فأصول أمي الحلبية واختلاطها منذ طفولتها بالعرب، من اسباب امحاء الحس الطائفي في أسرتنا. ومنذ صغري كنت أجد صعوبة في الاختلاط بالارمن والتأقلم مع عاداتهم وتقاليدهم كجماعة اثنية وقومية قوية التضامن. وطوال حياتي لم استطع التأقلم والاندماج في حياة جمعية او جماعية، بل مع افراد في عينهم، من غير ان يفارقني الشعور بأن استجابتي التقاليد والعادات الارمنية سوف تنشئني فتاة عادية مستقبلها الزواج والانجاب. فنمط حياة الارمن الذي عرفته، كان يطلب مني أن أكون فتاة مهذبة مرتبة، تجيد خدمة الضيوف وتحسن استقبالهم. وقد حاولت أمي كثيراً، وبذلت جهداً كبيراً، كي تنشئني على هذه الصورة، لأكون فتاة جميلة تجيد الاهتمام بزوجها واولادها، مستقبلاً، فباءت محاولاتها وجهودها بالفشل. ثم إني رحت أنفر من نمط حياة الـ"كلاس" في الزيارات والنزهات، نفوري من الانخراط في انشطة النوادي الارمنية والمجتمع الارمني المتجانس.

ومنذ طفولتي راقت لي، في المقابل، رفقة جدتي لأمي التي كانت مقيمة معنا في البيت. كنت أمضي ساعات طويلة، وأحياناً نهارات كاملة، جالسة معها، تحكي لي الحكايات ونتحادث، فيما أنا أراقب يديها المنشغلتين بفن التطريز (الكنفا) على القماش والحرير. كانت تبهرني اللوحات الجميلة التي تطرزها بأناملها الرشيقة الماهرة، فأمكث الى جانبها وفي صحبتها اوقاتاً لا أشعر قط بطولها ولا بالضجر، الى درجة اندماجي برفقتها حتى التوحد الكامل. وكم كنت أسمع جدتي تقول لأمي أني سوف اكون رسامة في المستقبل. فأخذت أمي تهتم بتنشئتي على الرسم، واستقدمت معلمة لتعليمي اصوله في دروس بيتية خاصة، ومن المعلمين الذين استقدمتهم لتدريسي، اذكر پول غيراغوسيان، في صباي الاول.

٣

في مدرستي الليسيه الفرنسية للبنات وصلت الى صف البروفيه، كأي تلميذة ناجحة قليلة الدرس، وتتوق الى قراءة كتب الصفوف المدرسية التي تعلو صفها. ومنذ التاسعة من عمري شغفت بالقراءة، ورحت التهم كثيراً من الكتب التي كنت أسهر احياناً حتى ساعة متأخرة من الليل كي أفرغ من قراءتها. أذكر مثلاً أني التهمت كتاب "البؤساء" في ليلة واحدة، قبل أن أبدأ في مرحلة لاحقة بقراءة جان پول سارتر والبر كامو وكيركيفارد وغيرهم من أعلام الادب العبثي والوجودي والعدمي. وقد تكون هذه القراءات المبكرة والفائضة عن الحاجة، هي التي أسست لشعوري المبكر بالاختناق وعبثية الحياة ولا معناها وخلوها من اللون والطعم حتى الفراغ وحافة الموت. وهو الشعور الذي ظل يتقلب في حياتي في فترات متقطعة ومتباعدة بين الرابعة عشرة والثلاثين من عمري.

من استكانتي الى صحبة جدتي وحكاياتها وفنون اشغالها اليدوية في التطريز في طفولتي، الى انقطاعي وعزلتي منكبة على القراءة والرسم في مراهقتي وصباي، كنت كمن تعيش وحيدة ومستوحدة، بلا دليل خارجي وحدود خارجية تنظم حياتها وتضبطها على وتيرة وإيقاع. كأني نشأت حرة طليقة في بيت فسيح كثير الغرف، كل شخص فيه، أبي وأمي وأختي وشقيقاي، مستقل عن الآخر في شؤونه وحياته الخاصة. حتى أني استطيع القول إن أسرتي كانت طفيفة الحضور في حياتي. والدليل أني نمت في المساء الذي سبق نهار امتحانات شهادة البروفيه الرسمية لأذهب في الغد الى مركز الامتحان، فاستيقظت صباحاً على قرار شخصي مفاجئ بعدم الذهاب، ولم أذهب فعلاً، لأني لا اريد اكمال تعلمي في المدارس، ولا اريد ان افعل اي شيء آخر، وشغلت نفسي باستكمال رسم لوحة كنت توقفت عن إنجازها أمس، من غير أن ينبهني أحد في المنزل ويطلب مني الذهاب الى مركز الامتحان. ففي حياتي البيتية أكاد لا أذكر أن احداً مارس عليّ ضغطاً ما كي أقوم بأي عمل. لقد نشأت بلا رقابة وتوجيه خارجيين. كأني عشت حياتي كلها على حدس وإلهام ويقين بأن ما أريده وأصبو اليه سوف يتحقق في حينه، هكذا تلقائياً، بلا خوف ولا جهد كبير. كنت موقنة أني سأنهي تعليمي يوماً ما، وسأصير رسامة كما أرغب وأريد. وربما هذا ما جعلني أعيش حياتي من غير أن أنكسر، او من غير أن أقلب انكساراتي الى دراما وأعيشها كدراما، لإدراكي الداخلي أن الامور سوف تتيسر، وأكمل طريقي بلا حواجز كبيرة تعوقني في سيري عليها.

٤

في مطلع الصيف الذي لم أتقدم فيه من امتحانات البروفيه الرسمية، أجريت امتحان دخول الى الصف الثانوي الاول في مدرسة السان جوزف القريبة من مدرستي الاولى، فرسبت فيه. لكني في مطلع العام الدراسي، نهاية ذلك الصيف نفسه، قصصت شعري وصبغته أشقر، وتقدمت من الامتحان نفسه، فنجحت فيه بتفوق كبير حمل ادارة المدرسة على قبولي في صف البكالوريا الادبي. وفي نهاية ذلك العام الدراسي لم أتقدم من الامتحانات الرسمية. ذلك أني كنت أتابع تعلم الرسم في المركز الثقافي الايطالي في بيروت، أنا والرسام الارمني اللبناني أسادور الذي يكبرني بسنتين او ثلاث، فقرر المركز نفسه، إعطاءنا منحتين متساويتين لدراسة الرسم مدة ثلاثة اشهر في ايطاليا، بتنويه من الرسام پول

المركز العربي للم

غيراغوسيان الذي كان عضواً في اللجنة التي عيّنها المركز لاختيار الفائزين بالمنحتين المقررتين. سافرنا معاً، مطلع صيف ١٩٦٤، الى ايطاليا، غير مدركة ان الحصول على شهادة البكالوريا ضروري لمن يرغب متابعة دراسة الرسم. وبدل ان أمكث ثلاثة اشهر في ايطاليا، شأن أسادور الذي عاد الى لبنان بعد مضي هذه الاشهر، انتقلت الى روما ودخلت الى معهد الفنون الجميلة فيها، حيث أمضيت ثلاث سنوات طالبة في ذلك المعهد، وعدت بعدها الى بيروت في العام ١٩٦٧.

٥

عشية سفري الى ايطاليا، جاء الى بيتنا اصدقاء لأسرتنا وأقاربنا من الارمن، فأعربوا لأمي وأبي عن احتجاجهم على سماحهما لي بالسفر وحدي، أنا الفتاة الجميلة التي يرغبون في تزويجها لواحد من ابنائهم، لئلا تخرج عن دائرة حياة الجماعة الارمنية وروابطها وعلاقاتها، وكان جواب والديّ ان الخيار متروك لي وحدي. أما والدي الذي لم يحادثني في امور جدية الا في ما ندر، فأوصاني قبل أن أسافر بألاّ أقبل هدية من رجل، والا أدع رجلاً يمتلكني، ثم قال لي إن الزواج لا يخلو من المصائب، شأن عدم الزواج، وإن عليّ أن أعيش وأختار ما يناسبني، أنا التي نفرت من الزواج منذ صغري، نفوري من أن أحيا ملتصقة بأي من الاشخاص. فصورة حياة الثنائي (الكوبل) المتحد او المقترن أحدهما بالآخر كانت تشعرني بالضيق والكمد والاختناق.

قد يكون هذا ناجماً عن العذاب الذي لحق بأمي جراء حياة والدي الدونجوانية وعلاقاته النسائية التي انصرف اليها غير مهتم بحياته البيتية والأسرية. واذا كنت قد عشت متضامنة مع أمي في حزنها وعذابها، فإن معايشتي لها علمتني ألا أكون ضحية مثلها، وألا أدع أحداً يوصلني الى الحال التي كانت عليها. لذا فكرت أني لن أرتبط برجل ارتباطاً دائماً وكاملاً، وكأني في هذا اخترت التعاطف مع أمي، وأن أعيش حياتي على صورة حياة أبي ومثالها.

منذ البداية كانت حياتي وعلاقاتي العاطفية مع الشبان عبارة عن فسحة جميلة تخرجني من نفسي ومن استغراقي في القراءة والرسم وانصرافي اليهما. كنت أظل فترات طويلة مستوحدة غارقة في القراءة، فأقول بين فترة وأخرى إن عليّ أن أخرج الآن الى الحياة، فأتسلى في صحبة شاب، قبل أن أعود ثانية الى عزلة القراءة ووحدتها المضنية والمعذبة. كانت تفرحني العلاقات بالشباب وتسلّيني وتبعث الحياة في قلبي. لذا لم تجلب لي علاقاتي العاطفية والغرامية بالشبان والرجال اي ألم، على خلاف الفترات والاوقات الاخرى من حياتي، أنا التي نشأت نشأة بورجوازية ارمنية، وعلى نفور من الحياة البورجوازية والارمنية، وعلى رغبة في الخروج منها وعليها الى الاندماج في حياة البلد وجماعاته المتنوعة.

كانت علاقاتي بالشبان، والرجال تالياً، سبيلي الى هذا الخروج، والى التواصل مع حياة المجتمع اللبناني والتعرف الى مناطقه وفئاته وثقافاته المختلفة، والاندماج في دورة حياة عامة، خارج بيئتي الارمنية الاولى والصغرى.

واذا كانت حياتي البيتية والمدرسية التي أرغب في الخروج والفرار منها، وكذلك توحدي مع القراءة والرسم اللذين وجدت فيهما ملاذي الشخصي والداخلي، فإن صلاتي وعلاقاتي بالشبان والرجال على اختلاف درجاتها وأنواعها، هي مجال خبرتي في الحياة، ومجال تعرفي الى حياة المدينة والبلد، واندماجي فيهما، في بيروت قبل أن أغادرها الى ايطاليا، وبعد عودتي اليها في أواخر الستينات، وحياتي فيها في السبعينات والثمانينات، قبل رحيلي الى الولايات المتحدة الاميركية.

٦

عدت الى بيروت عام ١٩٦٧، ممتلئة برغبة قوية في الرسم. لكن هذه الرغبة كان يشوبها إحساس داخلي بأن ما أفعله، كلما أخذت ورقة وشرعت بالرسم، لا يعني لي شيئاً. فمنذ كان عمري ١٥ سنة لم أكن ممتلئة بما أفعله، وأحسب أن أفعالي وكلماتي منفصلة عني ولا تعبّر عن حقيقتي الجوهرية التي عليّ ان أهتدي اليها كي أشرع في الرسم انطلاقاً منها وبناء عليها، من غير ان أهتدي الى الطريق الذي يفضي بي الى ذلك الجوهر الذي يقيم في داخلي. وأحياناً، في لحظات البحث المضني عن هذا الطريق، كنت أجدني جالسة لساعات في حال من التوحد مع نفسي، فأقوم بتحسس جسمي لأتأكد من وجودي.

استغرقتني هذه الحال بعد عودتي من ايطاليا، حتى أني رحت أقف او أجلس اوقاتاً طويلة قبالة المرآة محدقة في صورتي فيها حتى الغياب والامحاء. أقف او أجلس بلا أي حركة محدقة في عينيّ، حتى أشعر او امتلئ بالفراغ التام، فيلتمع ضوء قصير في داخلي، فأوقن ان هذا ما أبحث عنه وأنتظر وصولي اليه، فأشرع في الرسم. يومياً رحت أقوم بهذه الرياضة التي قد أكون استعضت بها عن انصرافي السابق الى نوبات القراءة الطويلة المضنية. ثم أقلعت عن التحديق في المرآة، وجعلت أجلس محدقة في بياض الجدار وفراغه، حتى امتلئ بالفراغ الداخلي، فأرسم ما يمليه عليّ هذا الفراغ، كأنما الجوهر هو الذي يرسمني، لا أنا التي أرسمه.

وفي المدة من حياتي كنت في رحلتي الت نحو التوحد با وبياض ا

عشت هذه التجربة وحدي من دون أن أكلم أحداً عنها. ذلك أني لم ألقَ أحداً يعي ما أنا فيه، كي أقدم على محادثته فيساعدني في فهمه واستيعابه، فاستبد بي شعور بالخوف من تجربتي هذه، واعتبرتها أقرب الى ان تكون حالاً مرضية تصيبني. والخوف الذي ألمّ بي زاد من انغلاقي على نفسي وتوحدي، فظننت ان الفراغ الذي اصل اليه ويملأني هو الجليد في عينه. وهذا ما كان يضاعف خوفي ويزيد اقتناعي بأني مريضة

حقاً، لأني كنت أحسب ان الضجيج والصخب والتنازع في العالم الخارجي هي الحياة الفعلية والحقيقية، لا الفراغ والبياض الداخليين الذين حسبتهما جليد الموت.

٧

كل ما رسمته في تلك الحقبة من حياتي كناية عن تأملات شخصية وداخلية في كينونتي الجوهرية داخل غرفة مقفلة، بقدر ما تعلو جدرانها البيضاء، تصير مادة شفافة يسهل اختراقها والنفاذ منها الى البعيد البعيد، الى حيث أسير في البياض المحض الذي لا نهاية له ولا حدود. وفي هذا البياض كنت استغرق في رسم جسمي واعضائي، لا على نحو نرجسي، بل غوصاً في الكينونة.

في تلك الحقبة بين أواخر الستينات ومطالع السبعينات، رحت أتردد على مقهى الهورس شو في الحمراء، فتعرفت الى رواده من الرسامين والصحافيين والمثقفين والكتّاب. كانت الاحاديث الثقافية والايديولوجية تستغرق اوقات الجلسات كلها، في صخب وضجيج رهيبين لم أقوَ على المشاركة فيهما. ومن تلك الاحاديث فهمت أن العالم يعيش في اللاعدالة، وأن هناك بشراً مظلومين ومقهورين عليّ مساعدتهم. ومما لاحظته في حلقات الهورس شو أن الجميع كانوا يأتون ويجلسون جماعات جماعات، ولا أفراد بينهم. وحين أخذ البعض يتقرّبون مني راغبين في معاكستي معاكسة الرجل للمرأة في اعتبارها منتظرة ومتلقية ومستجيبة رغباتهم ومبادراتهم، رحت أصدّ مشاكساتهم ومبادراتهم تلك، لأترك لنفسي فسحة من الاختيار والمبادرة الذاتية والشخصية.

لب الآخر لا أزال مستغرقة أملية الخاصة الفراغ الداخلي كينونة

في البداية لم أكن أفهم أحاديثهم الايديولوجية والسياسية الصاخبة، التي سرعان ما انجذبت اليها واستغرقت فيها، وحملتها على محمل الجد والحقيقة أكثر مما يجب، فأوجعتني وآلمتني. ذلك أني تجاوزت الحدود في استبطاني ما سمعته وخبرته عن حياة الناس البائسين والمظلومين والفقراء، فصرت أتعذب عذاباً مريراً كلما رأيت امرأة او طفلة تتعذب في المخيمات الفلسطينية، او أبصرت شخصاً فقيراً في ساحة البرج. كأني كنت أضع نفسي في مكان اولئك المعذبين فأعيش عذابهم على نحو شخصي وحتى الثمالة، فينتابني حزن يفوق احتمالي، وأشعر بثقل وضغط كبيرين يحاصرانني ككابوس وحتى الاختناق.

وفي المقلب الآخر من حياتي كنت لا أزال مستغرقة في رحلتي التأملية الخاصة نحو التوحد بالفراغ الداخلي وبياض الكينونة اللذين كانا يؤلمانني ويخيفانني، وأحسب أنهما يسيران بي نحو جليد الموت، فيما أنا استرسل في تجربة الرسم.

٨

في تلك الفترة، تعرفت في الهورس شو الى رفيق شرف الذي شعرت أنه يفهمني وأفهمه بعض الشيء، فتوطدت الصلة بيننا. معه بدأت أتعرف الى بعض وجوه الحياة في بيروت وفي بعلبك، واستمرت علاقتنا نحو سنتين، اعتبرهما مؤثرتين في حياتي وخياراتي الشخصية والفنية. كنت أغضب كلما ذهبنا معاً الى بعلبك، حيث لم أكن أفهم حياته المحلية والبلدية هناك. كنت استغرب علاقته القروية ببيته وجيرانه ومعارفه وبالشجرات والدجاجات و جلسات الأكل، فأروح أضحك احياناً حتى الغضب، أنا التي كنت أعيش كورقة طائرة، او كموجة، غريبة عن كل انتماء وتجذر في مكان وجماعة وبيئة.

مرة كنا نحضر معاً ندوة لسعيد عقل في بعلبك. وكلما كان سعيد عقل يقول كلمة ما، كنت أرى الحاضرين يقفون مصفقين، فلا أقف مثلهم ولا أفهم لماذا يصفقون منفعلين الى ذلك الحد. كدت أختنق من الضجر في تلك الندوة، فلم أصدق أنها انتهت، وخرجت مسرعة غاضبة الى السيارة. وحين خرج رفيق شرف وفتح باب سيارته، رميت سترتي فيها، فاصطدم أحد ازرارها بمرآة السيارة الامامية، فكسرها، فراح رفيق يضحك، مدركاً ما بي. أروي هذه الحادثة متذكرة رفيق شرف الذي لا تزال ذكراه حية في قلبي. واذا انهمرت من عيني دمعة فإنها انهمرت وفاء لذكراه، لا لأني كنت مرتبطة به ارتباطاً كلياً او دائماً، أنا التي أعلم ان حياتي كلها ليست سوى عبور دائم في محطات لا تنتهي. تدهمني الدموع الآن وفاء لذكراه التي سوف أنساها بعد لحظات، كما أنسى دموعي، لتستمر حياتي في عبورها المتصل. مرة فكرنا، رفيق شرف وأنا، ان نتزوج لنعيش معاً، لكن كل واحد منا في شقة منفصلة في بناية واحدة، ثم لم نقدم على تنفيذ هذه الفكرة، واحتفظنا بصداقتنا. ذلك ان كل الرجال الذين جمعتني علاقة عاطفية او غرامية بهم، وانفصلنا، احتفظت بصداقتي معهم، من غير ان يشوب انفصالنا اي ضغينة او كراهية. هكذا أنا على الاقل، وهكذا هي حياتي التي أخلّفها ورائي بلا ندم او حزن او ألم، الا ذلك الحزن العذب الذي يخلّفه العبور والنسيان والغياب. هكذا هجرت بيروت وتركتها ورائي، وأقمت في لوس انجلس، من دون أن يعذبني رحيلي عنها، حتى اذا عدت اليها كما أعود اليوم، أشعر بحب كبير لها ولكل من عرفتهم وعرفوني فيها. كأني في هذا أعيش مثل الاطفال الذين يفرحون ويغتبطون لحضور الناس الذين يحبونهم، وينسونهم بعد قليل، ما ان يغيبوا عن أبصارهم.

٩

بين الرسم وعزلاته البيضاء الممتلئة بالفراغ، وانغماسي في حياة رواد الهورس شو وصخبهم وكلامهم، واستغراقي في استبطان ما يقع على البشر من ظلم وبؤس في مجتمع اللاعدالة، كنت في تلك الفترة كمن يقود عربة تجرها أحصنة ثلاثة كل حصان يشدها في اتجاه. أتعبتني تلك

الحال تعباً مريراً وقاسياً، فأقنعني أهلي واقتنعت بأني مصابة بانهيار عصبي، وقبلت بأن أذهب الى عيادة طبيب للأعصاب، فسألني الاسئلة التي تُسأل عادة للمصابين بفصام في الشخصية واستنتج أني مصابة فقط بعوارض الفن من غير أن أهتدي الى طريقتي في التعبير الفني، لا بفصام الشخصية.

أراحتني زيارة الطبيب هذه، ثم وجدت في منزلنا كتاباً صغيراً قرأته، وفهمت منه ان الكون والوجود والعالم مصدرها واحد، فزاد ذلك من ارتياحي وشعوري بالصفاء الذهني والنفسي. كأنما العالم كله توحد في وعيي وحواسي. وذات يوم من تلك الفترة كنت أقف وحدي في صباح مشرق على شاطئ البحر، أنظر في أمواجه. فقررت، فجأة، اني سوف أعيش منذ اليوم حياة الامواج، لا حياة مياه البحر الهادئة العميقة المترامية. قررت أن أهتم بحياة الموجة المتقلبة الزائلة، وبحياة العالم الخارجية الصاخبة لا بالمياه الساكنة، بعيداً عن التوحد والامتلاء بالفراغ. وهكذا انطلقت الى عناق متصل لحركة العالم الخارجية، وبدأت مرحلة جديدة من حياتي الفنية في الرسم. رحت أرسم الاشياء والناس في حركتهم في الشارع. أعلم الآن ان حياتي بين الامواج وصخبها قد جعلتني أتجرع جرعات كبيرة من المياه، فيما أنا أتخبط في أمواج الحياة والعالم الخارجي. لكني كنت آنذاك في حاجة الى تلك التجربة التي خلت أنها أخرجتني من عذاب الفراغ الداخلي والبحث عن الكينونة، كي أقف منتصبة على قدمي على ارض ما، فقادتني تلك الوقفة الى الانخراط في الحزب الشيوعي اللبناني، فتعرفت الى ابرهيم العريس الذي عرّفني بدوره الى جماعات من شلل المثقفين الشيوعيين الذين راحوا، في بدايات الحرب في لبنان، يصطحبونني في جولات الى المناطق اللبنانية، في وصفي بورجوازية ارمنية. وفي واحدة من تلك الجولات في الجنوب تعرفت الى علوية صبح وعباس بيضون في مركز الحزب الشيوعي في صور.

لقد ابتدأت الحرب في الخارج، وراح الناس يتراشقون زخات الرصاص والقتل، في وقت كنت قد أنهيت حروبي الداخلية والشخصية وخرجت منها بعد عذاب طويل. لذا عشت الحرب كمن يلعب لعبة مؤلمة، وتحولت الى رسم الناس والاشياء في تنافرها وتنازعها وخوفها في الاماكن المدينية المضطربة والخاوية والممسوسة بالفراغ والرعب. وهذا ما اصطلح على تسميته المرحلة الواقعية في رسومي وأعمالي.

١٠

بين ١٩٧٦ و١٩٨٦ في بيروت الحرب، تورطت كثيراً في صخب أمواج العالم، وابتلعت كثيراً من المياه، أنا التي شخصيتها اقرب الى الطيران وعدم الالتصاق بالارض. رسمت الاشخاص في لوحاتي ملتصقة أقدامهم بالارض، في تلك الفترة، وبذلت جهداً كبيراً في خوضي هذه التجربة من حياتي الفنية والشخصية. أعلم أني في حاجة الى تلك التجربة التي شعرت أنها بدأت تُستنفد وتنتهي في اواسط الثمانينات، لاستغراقها في قضايا الناس والمجتمع والسياسة والحرب. ذهبت مرة في تلك الفترة الى قرية جنوبية صغيرة، وحضرت ندوة كان يتحدث فيها شاب شيوعي عن قريته وكأنها العالم كله، والدنيا كلها. ظل ساعة ونصف الساعة على تلك الحال، فأصابني ضجر كبير ويأس اكبر منه، وشعرت أن لبنان كله وأهله مثل هذه القرية وأهلها المستغرق الشاب المحاضر في الحديث عنها وعنهم، فبدأت تراودني الرغبة في الهجرة من لبنان.

كانت سنوات كثيرة قد مضت على تدريسي الرسم بالتعاقد في معهد الفنون الجميلة، الجامعة اللبنانية. وبدأت اشعر أن فئات من الطلاب والاساتذة ينظرون اليّ نظرات مريبة في كافيتريا المعهد، أنا الارمنية الشيوعية التي تعيش وحدها حياة حرة من دون ارتباط برجل. حتى الناس في الطريق والمقهى صاروا ينظرون اليّ نظرة مختلفة بدأت تخيفني، فأشمئز من نظراتهم ومن وجوههم الملتحية العابسة المنقبضة التي تستبعدني، وتشعرني اني غريبة عن المشهد العام المحيط بي، فزاد هذا كله من عزمي على الرحيل والهجرة، ضد هذين الاختناق والعبوس.

١١

وصلت الى مدينة اوس أنجلس في الولايات المتحدة، وأقمت في بيت أخي وزوجته الارمنية. لم أكن أعرف غيرهما في المدينة كلها. وفي الشهرين او الثلاثة التي عشتها في بيت أخي، شعرت ان حياة الارمن التي خرجت منها وعليها منذ صباي البعيد، عادت لتحاصرني من جديد أنا الهاربة من حصار بيروت، فقررت مغادرة اقامتي في بيت أخي في مدينة يمتد عمرانها على اوتوستراداتٍ طويلة، لا أعرف أحداً فيها، والعلاقات بين سكانها متباعدة وسريعة سرعة السيارات العابرة على اوتوستراداتها التي لا تنتهي.

لأتدبر معيشتي، عملت مدرسة رسم في مدرسة ارمنية، أنا التي لا أطيق التعليم، ثم أقمت وحدي في بيت أخرج منه الى المدرسة وأعود اليه من غير أن أعرف أحداً في المدينة كلها، فراح كل من الضجر والعزلة والوحدة يخنقني، فأرسلت شريط كاسيت الى اصدقائي في بيروت سجلت عليه وقائع عذابي وأنا أنوح بين عبارة واخرى. وفي السنوات الست الاولى من حياتي في لوس أنجلس تعرفت الى اشخاص كثيرين من أجناس كثيرة لم ترق لي صحبة أحد منهم ولم تلائمني، فشعرت أن حياتي أقرب الى جحيم في التعليم وفي العلاقات الشخصية. وفي تلك الفترة ارتبطت لأشهر بعلاقة زواج مع رسام عراقي من اصل ارمني. كان مدمناً على الكحول، وفي البداية استجبت رغبته في ان أتخلى عن الرسم كي يتفرغ هو وحده اليه، طالما أني كنت أرى أن لا معنى لحياتي ولما أقوم به. رضيت ان أضع نفسي في خدمته ومساعدته، فرحت أقود به السيارة وأعطيه ما يريد ويرغب، فأكتشفت، فجأة، أني استطيع العطاء ولي معنىً وأهمية في هذه الدنيا، وهذا ما منحني القوة والارادة، فرحت أشاكسه واصطدم به، فازددت قوة وارادة ووقفت على قدميّ وتمكنت من الانفصال عنه.

شيئاً فشيئاً بعد هذه التجارب القاسية من التعليم والعزلة والارتباط بذلك الرجل، بدأت استعيد توازني الشخصي والداخلي، فرحت أرسم، ثم تذكرت أني أحب الاولاد الذين أعلمهم في المدرسة التي أمضيت سنوات في صراع مرير معهم، فيما كنت أعلمهم الرسم، فتبدلت حياتي كلها وغمرني هدوء ووئام داخليين، ورضيت بحياتي، وتعرفت الى اشخاص رسامين راقت لي صحبتهم وعلاقتي بهم. وفجأة انقلب كل ما كنت أراه بشعاً ومنفراً في لوس أنجلس، جميلاً ويبعث على الراحة والطمأنينة. ثم انشأت علاقة منتظمة ومستديمة مع صالة عرض كبرى ومهمة في المدينة، رحت أعرض فيها اعمالي مرة كل سنتين، فصرت رسامة معروفة في بعض الاوساط الفنية. وهكذا بدأت استعيد صلتي بالفراغ والكينونة وأرسم ساعات طويلة، من غير حاجة الى أن يطرق أحد باب بيتي، أو الى ان يرن جرس الهاتف. غمرني هدوء داخلي، ولم أعد في حاجة الى صخب الامواج والعالم، فتغيرت رؤيتي الى الفن والرسم والحياة. والمشهد نفسه الذي كنت أراه قبيحاً في المدينة في ما مضى صرت أراه جميلاً ويبعث على الهدوء والرضا. والجبل، حتى الجبل القريب الذي كنت أشعر ان نباتاته تشبه الاشواك والمسامير، حين أطل من نافذة بيتي وأراه، صرت أراه مزهراً وأخضر وجميلاً ويمنحني مشهده إلفة وسكينة لذيذة ■